20
علماء العرب

الأنطاكي

أبو الصيدلة

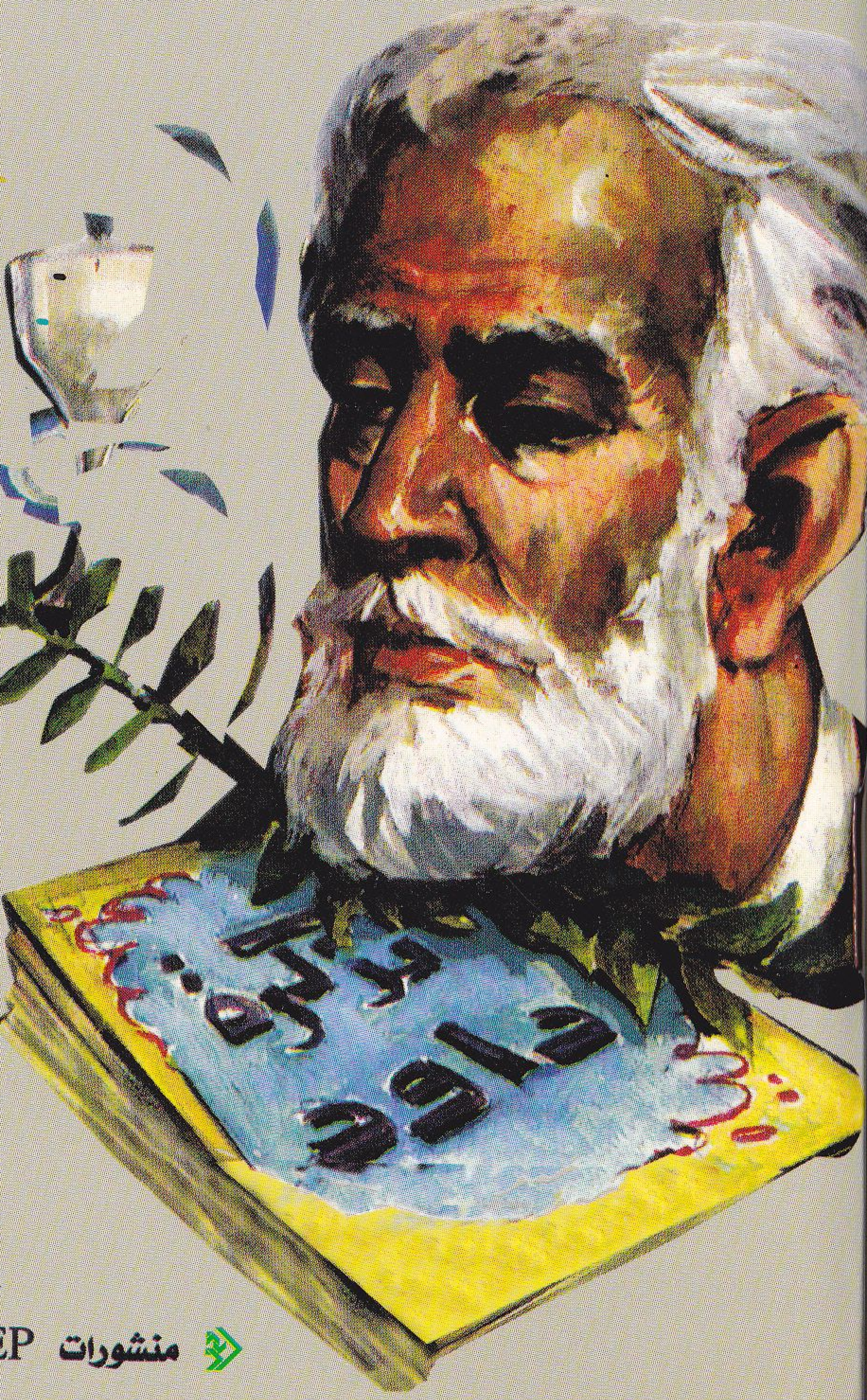

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

منشورات ANEP

علماء العرب

الأنطـــاكي

أبــو الصيـدلــة

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الكتاب: الأنطاكى
سلسلة علماء العرب
المؤلف: سليمان فياض
تصميم الغلاف: بديعة ميدات
الناشر: منشورات ANEP

50، شارع خليفة بوخالفة - الجزائر
الهاتف/فاكس: 213 21 23 64 85 / 213 21 23 89 61
الهاتف: 213 21 23 89 16 / 213 21 23 68 32
فاكس: 213 21 23 64 90
e-mail: editionsanep@yahoo.fr

الطبعة الأولى 2006
ISBN : 9947-21-282-3
Dépôt légal : 1702-2006

جميع الحقوق محفوظة لمركز الأهرام للترجمة والنشر

نور القلب

كان «داوُدُ» الصّبِى يسير فى حدائِقَ «أنطاكية» (شمال غربى سوريا)، مع طبِيبِه الفارسِىّ «بَهزَادَ»، بعد أن نَجَحَ الطبيبُ فى شفائه من مرضِه الطَّوِيل.

وكانَ «داوُدُ» كفيفَ البصر، فقد وُلِدَ لا يَرى من الدُّنْيَا شَيئًا. وأخَذَ الطبيبُ يصِفُ لداوُدَ بالكلماتِ ما لا يَراه. وداوُدُ يُنصِتُ لطبيبِه، دونَ أن يلتفتَ إليه، ويسمَع وصفَه فى سُكونٍ، دونَ أن يَبدُوَعليْه أيُّ انفعالٍ. وحين انتهى الطبيبُ من وصفِه لما يراه، قالَ لَهُ «داوُدُ»:

أَصْواتُ الطيورِ، والمياهُ المُنحدِرةِ (النّازلة) فى سَفْحِ الجبَلِ، ونسيمُ الهواءِ بينَ التّلالِ والهِضَابِ، تُحدِّثُنى بكلِّ هذا الوصْفِ يا سيّدي، وكأنَّني أَراه بعَيْنَيْنِ مُبْصِرَتين.

وَنظَرَ إليه «داوُد» بعيْنَيْنِ واسِعَتَيْنِ، ساكِنَتي السّوَادِ، وكأنّهما تُبصِرانِ، ثُمّ قَال:

– لكِنْ، كَمْ تَمنَّيتُ يا سيّدي أنْ أَرى هذهِ الألوانَ، التي ذَكرتَها لي: الأحْمَرُ، والأصْفَرُ، والأزرَقُ، والأخضَرُ، والأبيَضُ، والأسوَدُ، وما بَينَها من دَرجاتِ الألْوانِ، ولَوْ للحظةٍ واحِدةٍ، تبقَى فى ذاكِرَتي إلى الأبَدِ.

وكادَ الطبيبُ «بَهزَادُ» أن يُعبِّر عَن تأثرِه وانفعاله بالبُكاء، رِثاءً لحالِ «داوُدَ»، وإشفاقًا عليه، لكنّهُ فوجِىءَ بداوُدَ يبتَسِمُ، ثُمَّ يَضحَكُ، ويشدُّ بيَدِه على يَدِهِ، قائلاً:

لا تُشفِق عليَّ يا سيِّدي، فَمعِي رَحمَةُ اللَّهِ بي. لَقد مَنَحَني اللَّهُ عَقْلاً، أَرجُو أن يكُونَ راجِحًا، وسَمعًا قَويًا، يُعَوِّضُني، مع عَقْلِي، عن نِعْمَةِ البَصَرِ.

عِندَئِذٍ قَبَّلَ الطّبيبُ «بَهزَادُ» داوُدَ، في جَبِينه، قائِلاً لَه:

تَذَكّر دائمًا يا داوُدُ ما قُلتَه لي الآنَ. فذلِك هوالإيمانُ، والإيمانُ باللَّه، وبالحيَاة، يَعصِمُكَ (يَحفَظُكَ) يا بُنَيَّ، مِن كُلِّ ضَعْفٍ، أو حُزْنٍ، أو يَأسٍ.

وعادَ «داوُدُ» و«بَهزَادُ» يسيرَان مَعًا، ويدُ أَحَدِهما في يَدِ الآخَرِ. وكان «بَهزَادُ» يوجِّه «داوُدَ» في سَيرِهما، بضَغَطَاتٍ خَفيفَةٍ من يَدِه، يُمنَةً ويُسْرَةً، وأَعلَى وأَسفَلَ، وهُما يَنزِلانِ مُنْحَدِرًا، أَو يَصعَدانِ مُرتَفِعًا، و«داوُدُ» يَستَجيبُ لِضَغْطَةِ يَدِ «بَهزَادَ» في يُسْرٍ (سُهولة). وعجِبَ «بَهزَادُ» لأنَّ «داوُدَ» فى سَيْرِهِ مَعَه، يَسيرُ مُنتَصِبَ القامَةِ، مَشْدُودَ الرَّقَبَةِ، مَرْفُوعَ الرَّأسِ، لا يَميلُ رَأسُه يُمْنَةً أويُسْرَةً، في قَلَقٍ ومُتَوتِّر، مِثْلَ أكثرِ مَن فَقدَ البَصَرَ، وهَمَسَ «بَهزَادُ» لِنَفسِه: «إنَّه يَرَى بنورِ القَلْبِ».

سأعيش على ذاكرتي

اجْتَازَ «بَهزَادُ» و«داوُدُ» حَدَائِقَ «أنطاكية» الشَّرقِيّة، وتَوَغّلا مَعًا في الجَبَلِ المُجَاوِرِ لأَنْطَاكِيَة، صاعدَيْن إلى القلاعِ الرّومانيّة الأثَرِيّة الضّخْمَة، فَوقَ قِممِ الجبَلِ، وبَين ذُراه (قِمَمِه) المُتَدرِّجة الارتفاعِ.

وراحَ الطَّبِيبُ يُحدّث «داوُدَ» عَن تِلْكَ القِلاعِ، وكَيْفَ أنّها تُشكّل قَوسًا واسِعًا، يُحيطُ بِأَنْطاكية، ويَحكي لَهُ الحِكَاياتِ عَن أَسْوار «أنطاكيةَ» الهائِلَةِ المُحَصَّنة، المُمتدّة فَوْقَ الجبَلِ، وبَين القِلاعِ، مَسافَة ستّة عَشَر مِيلاً، وعَن الأبْراجِ الدّفاعيّةِ في الأسْوارِ والقِلاعِ. ثُم قَالَ لَه:

– بَينَ كُلِّ بُرجٍ وآخَرَ، يا داوُدُ، سبعُونَ خُطْوَةً بالتّامِ. فَضَحِكَ «داوُدُ» وقال:

– عرفتُ ذلكَ بنَفْسي يا سَيِّدي، فقد أحصَيْتُ عَدَدَ خطواتي، بَين كُلّ بُرجٍ وبُرجٍ، تُحدِّثُني عَنهُ.

فَقالَ لَهُ «بَهزَادُ» بدهشَةٍ:

– هل تعُدّ خطواتِكَ فى السيْرِ يا داوُدُ؟

فقال له «داوُدُ»:

– نعمْ يا سيّدي، وأَحْسِبُ عددَها كُلَّما انعطَفْتُ يُمنةً أو يُسْرةً، وكُلَّما انحدَرْتُ أو صعَدْتُ، فإنّي أُحبُّ أن آلفَ (أعتادَ) الأماكنَ، وكَأنَّها بَيْتي، حتّى إذا ما سرْتُ فيها وَحدِي، لم أفقد طَريقِي، وأضلَّ في سيرى، أوأظنَّ أنَّني أَصْعَدُ، علَى حين أنّني أنْحدِرُ، أو أَتوهَّمُ أنّني أَنْحدِرُ، علَى حين أنّني أَصْعَدُ، فأتعثَّرُ في سَيري، أو أَسقطُ علَى وَجْهي أُريدُ أن أَتذكَّرَ كُلَّ طَريقٍ جيِّدًا. فعلَى ذاكرَتي سأَعيشُ بقيّةَ عُمرِي.

فقَالَ له «بهْزادُ» بإعجابٍ:

– أنارَاللّهُ لكَ بَصيرَتَكَ يا داوُدُ. وأَحْسِبُ أنَّكَ ستَكونُ أيضًا، بحاجَةٍ إلى عصًا، تَتوكَّأ (تستنِدُ) علَيْها، وتتحسّسَ بِها طَريقَكَ، حِينَ تَسيرُ وَحدَكَ بِلا رَفيقٍ. « »

الحوارِيُّ حبيب النجّار

تَوقّفَ «بهْزادُ» و«داوُدُ»، أَمامَ قَلْعَةٍ شاهِقةٍ (عالِيَةٍ). وقال لهُ «بهْزادُ»:

– هَذِهِ القَلْعَةُ الضَّخْمَةُ بَناها الإمبراطُور البيزَنْطِيّ «نقْفُور فُوكاس» وَقد جعَلها الظاهِر «بِيبَرْسُ» أنقاضًا، والسَّبَبُ هُوَ..

فقاطَعَهُ «داوُدُ» قائلاً:

السَّبَبُ تَحصُّنُ الصَّليبيّينَ بها، أَثْناءَ احتلالِهِم لدِيَّارِ الشّام. أَعرِفُ ذَلكَ يا سَيِّدي. حكاهُ لي أَبي.

فَضَحِكَ الطَّبيبُ وقالَ له:

– ومَا الّذي تَعرِفُه أيضًا يا داوُدُ؟

فَقالَ له «داوُدُ»:

– بَيْنَ أنقاضِ هَذِهِ القَلْعَةِ، يُوجَدُ قَبْرُ الحَوارِيِّ «حَبِيبُ النّجّارُ» الّذي ماتَ شَهيدًا.

فَقالَ له «بهْزادُ»:

فاعلَم يا داوُدُ أَنَّ حَبِيبًا هَذا، كَانَ اسمُه «سِيلِيبوس» وأَنّه كانَ أَوَّلَ مَن آمَنَ بعيسَى بنِ مَريَمَ، مِن أَهْلِ «أنطاكيةَ»، وأَنَّ المُسْلِمينَ يُسمّونَه «حَبيبُ النّجّارُ». ويَزُورُونَ قَبرَه إلَى اليَوْمِ، مِثْلَما يَزُورُه المَسيحيّونَ.

وانحدَرَ الاثنان: «دَاوُدُ» و«بَهْزَادُ»، مارَّين في نُزُولِهما مِن الجبَل، بأهمِّ آثارِ «أنطاكِيَة»، حتّى بَلَغا «نَهْرَ العَاصِي»، فَعَبَرا فَوقَهُ قناطِرَ مُعلّقَةً، لا تَزالُ أطلالُها، وبَعْضُ آثارِها، باقِيَةً إلَى اليَومِ.

مَدينَة الصِّناعات

كانت «أَنْطاكِيَةُ» آنذاك، أكبَرَ مَركَزٍ للتِّجارَةِ بين الشّرقِ والغَربِ. فَعِندَها كانَتْ تَلتَقِي الطُرُقُ الموَصِّلَةُ بين النّهرِ والبَحرِ، بالطُّرُقِ البَرِّيّةِ التي تُؤَدّي مِنَ الشّام إلى آسْيا الصُّغرى (تركيا الآن).

وكانَتْ «أنطاكية» مركزًا من مراكِزِ صناعاتِ: الحريرِ، والصّابُون ، ومزْرَعَةٌ من مزارِعِ :القمحِ، والزَّيتُونِ. وكانتْ نَواحِيها هُنَا وهناكَ، في الجَبَل ، مثْلَما في الوَادي، شاهدَةً على كثيرٍ من الزّلازِلِ، الّتي تَعَرَّضتْ لها «أنطاكَيَة» عَبْرَ القُرونِ، وبرغْمِ آثارِ الزّلازِلِ ظلّت هذه المَدينَةُ بِساطًا من الخُضْرَةِ ، رائعَ الجمَالِ، بجانبِ جبالِ «كازْيُوس» العاريَةِ الجرْدَاءِ، وأشهرُها جبَلُ «سيلِيبوس» المَعروفُ بِجبَلِ «حَبِيب النّجّار».

نهر الأسماك

دَخَلَ «داوُدُ» مَعَ طَبِيبِه الفارسِيّ «بَهْزَادَ» إلى بيتِ أبيه «عُمَرُ الأَنْطاكِي»، مُختار (عمدة) قريةِ «حَبِيب النَّجّار» وكانَتْ قَريةً قَرِيبةً من «أنطاكية». وكان أبُوه هُوَ أَغْنَى أغنيائِها، فلَهُ في القَرْيَة، وفي «أنطاكيَة» مَتاجِرَ وعقَارَاتٍ، ولَه حولَ القَريةِ مَزارعُ شاسعةٌ، مَزرُوعةً بالقمحِ والزَّيْتُونِ.

والْتَأمَ شَمْلُ الأُسْرَةِ، مَعَ «بَهْزَادَ»، حَولَ مائدَةِ الطَّعامِ. وكانَتْ مائدَةً حافلَةً بالأَسْماك: المشويَّةِ، والمَقْلِيّةِ، والمَسْلُوقَةِ، يَتَوسَّطُها طَبَقٌ واسعٌ، به أَسْماكَ ثَعابِين الماء، التي يُحِبُّها «داوُدُ»، ويُفَضِّلُها على كافّة الأسْماك فَلاَ عظامَ تُذْكَرُ بهَا، ولا أشواكَ، وَضَحِكَ أبُوهُ، وَهُوَ يُقدِّمُ له ملْعَقَةً وَشَوْكَةً خَشَبِيَّتَيْنِ، كانَتْ تَشْتَهِرُ بصُنْعِهِما سواحِلُ الشّام، وَقالَ:

- مِن حُسْنِ حَظّكَ، يا داوُد، أن نَهْرَ العاصِي مَلِيءٌ عَلَى الدّوامِ بثعابِين الماءِ.

وحينَ انتَهَى الكُلُّ مِن الطَّعامِ، قدّم لهم خدمُ الدّارِ (البَيت الكَبير) حلْوَى الشّام، ثُم قدّموا لَهمْ طُسُوتَ النُّحاس، وصابُون أنطاكية، وصبُّوا على أيديهم مياهَ الأباريقَ النُّحاسيّة، الدَّقيقةِ النُّقوشِ.

أَحبَّكَ ولَدِي

ذاتَ نَهارٍ، قالَ «بَهزادُ» لعُمَرَ الأنطَاكي:

– آنَ لِضَيْفِكَ «بَهزادُ» أَنْ يَرحَلَ أَيُّها المُخْتَارُ (العُمدة). فقد شُفِيَ ابنُك «دَاوُدُ» من مَرَضِه، وعافاه الله. ولا أوصيه إلاّ بالاحتراسِ من الجُلُوسِ على الأَحْجارِ الرّطْبَةِ، حتى لا يُعاودَه بَرْدُ الحَوضِ، والفَخذَيْنِ.

عِندَئذٍ فُوجِئَ الرَّجُلانِ بِصوت «دَاوُدَ» يَقولُ لأبيه بِرَجاءٍ:

– لا تَأْذَنْ لَه يا أبِي في الرّحيلِ عن أنطَاكْيَةَ، فأنا بحاجَةٍ إليهِ الآنَ، وأنَا سَليمٌ مُعَافى أكْثَرَ ممّا كُنْتُ فِي مَرَضِي.

كان «دَاوُدُ» قَد دَخَلَ القَاعَةَ الكَبيرةَ لِتوِّهِ (حالاً) وسمعَ مَا قالَهُ «بَهزادُ» لأبيه. وَقالَ الأبُ للطبيبِ ضاحِكًا:

– ها أَنْتَ قَد سَمِعْتَ جَوابِي أَيّهَا الطّبيبُ، عَلى لِسانِ «داوُدَ». أَحبَّكَ وَلَدِي، وتَعلّق بِكَ.

فَقالَ «دَاوُدُ» لأَبيه:

– الحُبُّ نَعم. لكنّ حُبّي لَن يَمْنَعَه من الرَّحيلِ عنّا ذاتَ يَومٍ. لَكنّني بحاجةٍ إليه الآن، لأتَعلَّمَ عَلَى يَدَيْه: اللُّغَةَ الفارسيَّةَ، وعِلمَ الطّب،

وعلّمَ الدّواءِ. ولَن تضنَّ (تبخل) عَليْه يا أبِي بمال. ولَن تَحرمَه إقامَتُه مَعَنَا، مِن مُمارَسَةِ طِبِّه، بَينَ أَهلِ «أَنطَاكية» وضَواحيها.

عِندَئذٍ قالَ الطَّبيبُ الفارِسيّ لداوُدَ بِدَهْشَةٍ:

– أُعَلِّمُكَ الفارِسيّةَ يا بُنَيَّ، لا بَأْسَ بِذَلِكَ. لَكِنَّ.. الطِبَّ.. كَيفَ.. و..

فَقال «داوُدُ» بِمَرارة:

– كَيْفَ وأَنا لا أَرَى، ولا أكْتُبُ ولاَ أقرَأ؟ سَأَقولُ لَكَ كيفَ يا سَيِّدي. العِلمُ مَعلُومَات. والعِلْمُ يُلَقّن، ويَثْبُتُ في الذّاكرَةِ لمَنْ يَشَاء. والطبّ عِلْمٌ بِدَورِه. والعِلاجُ يَتِمُّ بالسُّؤَالِ والجَواب لِلمَريض، والتَّفكيرُ يُشَخِّصُ المَرَضَ، والأَيدي تَتَحَسَّسَه.. أَلا يُمكِنُ إذنْ لِفاقدِ البَصَرِ أن يَتَعَلَّمَ الطِّبَّ، ويُعالِجَ بِالدَّواءِ، مُستَعينًا بِسواه، حتّى وهُوَ بِلا بَصَرٍ؟

وَجِم (سَكَت) الطَّبيبُ الفارِسيّ، ثُمَّ قالَ باستِسلاَم:

– غَلَبْتَني يا بُنَيَّ. سَأَقبَلُ ذَلكَ يا دَاوُدُ، وأُعَلِّمُكَ اللُّغَةَ الفارسيَّةَ، ومَا أَعرِفُه مِنَ الطِّبّ الفارِسِيّ والعَرَبِيّ أَيضًا، لَكِن.

إذا أرَدْتَ أن تَفُوقَنِي فِي العِلْمِ يومًا، فَشُدَّ الرِّحالَ إلى آسْيا الصُّغْرَى (تركيا) وتَعَلَّم اليُونانيةَ هُناك، وتَعَلَّم معَها الطِّبَّ اليُونانِيَّ.

عِنْدَئِذٍ قالَ «عُمَرُ» لبَهْزادَ:

- مِنَ الأفْضَلِ، لهُ ولَكَ، أن نَبْعَثَ بداوُدَ إلى دِمَشْقَ، ونُلْحِقَه طالبًا بِبيمارسْتانِ (مُسْتشفى) دِمَشْقَ، ويَتَعَلَّمُ به الفارسيّة، واليُونانِيَّة، والطِّبّ، والدّواء.

فقالَ لَهُ «داوُدُ»:

- يا أبِي. إنَّ أحدًا مِنْ أطباءِ دِمَشْقَ، لَن يَسمَحَ بِتعليمِ الطِّبِّ لِمَن فَقَدَ بَصَرَه. سيُقُولون: الطِّبُّ بِحاجَةٍ إلى عينين، فَالطِّبُّ أكْثَرُ مِن أيِّ مِهنَةٍ أُخرَى بِحاجَةٍ إلى عَيْنَين. فَلا أمَلَ لِي فِي تَعَلُّمِ الطِّبِّ إلاّ مِن طَبيبِنا الفارسِيِّ هَذا.

فَقَالَ «بَهْزادُ» لِعُمَرَ الأنطاكِيِّ:

- نَطَقَ داوُدُ بِالصَّوابِ يا أَبَا داوُدَ. وسَأبذُلُ جُهدِي فِي تَعليمِه ما عِشْتُ. ومَن يَدري. قَد أوثِرُ البَقاءَ فِي بَلْدَتِكُم الجَميلةِ بَقِيَّةَ عُمْرِي. لَكِنَّنِي، يا أبَا داوُدَ، بِحاجَةٍ إلى أهْلِي، وهُمْ مُقيمونَ، في «شيراز» بِفارِسَ (إيران)، فلسوف تَمُرُّ السُّنُون، ويَطولُ مَقامِي مَعَ «داوُد».

فَقَالَ «عُمَر» لِبَهْزَادَ:

- لاَ تَحمِلْ هَمًّا لِهذَا الأمرِ. غَدًا نُرْسِلُ مَن يَأتِي بِكُلِّ أَهْلِكَ إِلَيْكَ. ونَشْرَعُ (نَبْدَأُ) فِي إِقامَةِ بَيْتٍ فَسيحٍ، لَكَ ولِلأَهْلِ، فِي قَرْيَةِ «حَبيبِ النّجار».

النَّفسُ والجسَدُ

كانَ الطَّبيبُ «بَهْزادُ» مَوْسوعَةً «دائرة مَعارِف» حيَّةً، مُتَحَرِّكَة، تَسْعَى عَلَى قَدَمَيْن. كانَ بارعًا فِي عُلومِ: المَنْطِقِ، والرِّياضيّاتِ، والطَّبيعيّات، بَراعَتَه فِي عَزْفِ المَقْطوعاتِ المُوسيقِيّةِ الفَارسِيّة، والعَرَبِيَّة، عَلَى العُود. وكانَ يَعْرِفُ اللُّغَةَ العَرَبِيّةَ مَعرفَتَه بِلُغَةِ قَوْمِه الفارسِيّة. وكانَ يُحِبُّ التَّدريسَ لِسِواه، مِثْلَمَا يَهْوَى عِلاجَ مَرْضاه، لَكِنَّه لَم يَكُنْ راغِبًا فِي أَنْ يُؤَلِّفَ فِي أيِّ عِلْمٍ. فَبَعْضُ النَّاسِ، مِمَّنْ هُمْ مِثْلَه، يُؤْثِرُونَ (يُفَضِّلُونَ) الحَياةَ بِعِلْمِهِم، ونَفْعِ النَّاسِ بِه، عَلَى أَنْ يَكونُوا مُؤَلِّفينَ لِلعُلومِ. وكَذلِكَ كانَ هَذا الطَّبيبُ الفارِسِيُّ.

وراحَ «داوُد» يَتَعَلَّمُ عَلَى يَدَيْ «بَهْزاد»، شَهْرًا بَعْدَ شَهْرٍ، وَعامًا بَعْدَ عامٍ، كُلَّ ما يَعْرِفُه «بَهْزادُ» مِنَ العُلومِ، فَقَدْ أَبَى عَلَيْه «بَهْزادُ» أَنْ يَدْرُسَ الطِّبَّ، قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِدِراسَةِ المَنْطِقِ، والطَّبِيعِيّاتِ،

والرِّياضيّات، المَعْروفَة في زَمانِه: بَلْ وَراحَ يُحَبِّبُه إلى المُوسيقى، ويُعَلِّمُه كَيْفَ يَسْمَع، وكَيْفَ يَعْزِف، حَتَّى يَتَّسِعَ أُفُقُه العَقْلِيّ لِمَعارِفَ الطِّبِّ، وَهِيَ مَعارِفُ مُتَشابِكَةٌ، مُعَقَّدَةٌ، بَيْنَ النَّفْسِ والجَسَد، فَالنَّفْسُ تُؤَثِّرُ في الجَسَدِ صِحَّةً ومَرَضًا، والجَسَدُ يُؤَثِّرُ في النَّفْسِ صِحَّةً ومَرَضًا، وحَتّى يَرِقَّ قَلْبُه بالمُوسيقى لِمَرضاه، مِثْلَما تَطيبُ نُفوسُ هَؤُلاءِ المَرْضَى بِسَماعِ المُوسيقى، ورُؤْيَةِ الحَدائِقِ والبَساتين.

..وَحانَ دُورُ الطِّبّ

استجاب «داوُدُ» لِبَرْنامَجِ (خُطَّة) أُستاذِهِ في تَعليمِه، وتَقَدَّمَ في دِراسَتِه لِلُّغَةِ الفارِسِيّةِ، ولِعُلومٍ لابُدَّ مِنْها لِمَنْ يَدْرُسُ الطِّبَّ، حَتّى جاءَ يَوْمٌ وَعَى فيه عَقْلُه النّاضِجُ، وحَفِظَتْ فيه ذاكِرَتُه القَوِيّةُ، لُغَةَ الفُرْسِ، ومَعارِفَ العُلومِ الدُّنْيَوِيّةِ التي لا يَعْرِفُها إلى زَمانِه سِوَى العُلَماءُ.

وكانَتْ قَدْ مَرَّتْ خَمْسُ سَنَوات، بَلَغَ مَعَها «داوُدُ» العِشْرينَ مِنَ العُمْرِ، فَأَخَذَ «بَهْزادُ» يُعَلِّمُهُ ما يَعْلَمُه مِنْ مَعارِفَ الطِّبّ، تَشْخيصًا وَعِلاجًا، وأَعراضًا وأَمراضًا، وَأَدْوِيَةً مُفْرَدَةً أَو مُرَكَّبَةً، مِنَ النَّباتِ، والأَحْجارِ، والحَيَوانِ والمَعادِنِ.

واعتادَ «بَهْزادُ» أَنْ يَصْحَبَ تِلْميذَهُ «داوُدُ» مَعَهُ، كُلَّما ذَهَبَ لِزِيارَةِ مَريضٍ مِنْ مَرْضاهُ، في قُرَى «أَنطاكِيَة» وضَواحيها، ويَصِفُ لَه بِصَوْتٍ مَسْموعٍ حالَ المَريضِ، وَأَعْراضَ مَرَضِه، ويَجْعَلُه يَتَحَسَّسُ بِيَدَيْهِ مَواطِنَ (مَواضِعَ) الدّاءِ (المَرَضِ) في جَسَدِ المَريضِ، ويَذْكُرُ لَه الدَّواءَ الشّافي، لِمَرضاهُ.

واعتادَ «داوُدُ» أَنْ يَسْمَعَ في جَوْلاتِه تَهامُسَ النّاسِ:

«فاقِدُ البَصَرِ ويَدْرُسُ الطِّبَّ؟! لَمْ نَسْمَعْ بِهذا مِنْ قَبْل».

واعتادَ «داوُدُ» ألاَّ يَحْزَنَ أو يَفْرَحَ بِمَا يَسْمَعُه من تَعليقاتِ الاستِنكارِ، أَو الإعْجابِ.

واعتادَ «بَهْزَادُ» أَنْ يُفاجِئَ «داوُدَ» بالأَسْئِلَةِ، حَوْلَ مَرضِ مَريضٍ، فَكانَ «داوُدُ» يُجيبُهُ باسْتِفاضَةٍ، ودِقَّةٍ، إجابَةً تَجْعَلُ «بَهْزَادُ» يَصيحُ لَها فَرَحًا. ورُبَّما صَفَّقَ له في إعْجابٍ، ثُمَّ يَقولُ لَهُ:

- حَمَى اللَّهُ لَكَ عَقْلَكَ يا داوُدُ، وأَبْقَى لَكَ ذاكِرَتَكَ، ونَوَّرَ بَصيرَتَكَ إلى الأَبَدِ.

وتَدرَّجَت ثِقَةُ «بَهْزَادُ» بِداوِدَ، فَراحَ يَتْرُكُ لَهُ فَحْصَ المَريضِ، يَتَسَمَّعُ بِأُذُنِه نَبَضاتِ قَلْبِه، ويَجِسُّ (يَتَحَسَّسُ) بِأَصابِعِه مَواطِنَ الأَلَمِ فِي جَسَدِه، ويَدُقُّ نَاقِرًا مَواطِنَ بِعَيْنِها مِنْ صَدْرِ المَريضِ وظَهْرِهِ، ولاَ يَفْتَأُ (لاَ يَكُفُّ) يَسْأَلُ عَن صَحْوِهِ ونَوْمِهِ، وهَضْمِهِ وبَوْلِهِ، ونَوْباتِ مَرَضِهِ فِي لَيْلِهِ ونَهارِهِ، ثُمَّ يَلْتَفِتُ لأُسْتاذِهِ قائلاً:

- أَرَى أَنَّ مَرَضَه كَذا، وأَنَّ عِلاجَهُ بِكَذا وكَذا، وغِذاءَه يَكونُ بِكَذا وكَذا.

آخِرُ الدُّروسِ

وكانَ «داوُدُ» قَدْ بَلَغَ مِنَ العُمْرِ خَمْسَةً وعِشْرِينَ عامًا، حينَ فَاجَأَهُ «بَهْزَادُ» ذَاتَ صَباحٍ بِقَوْلِه:

- لاَ أَعْلَمُ يا داوُدُ مِنَ اليُونَانيّةِ الكَثيرَ، ولَكِنَّني صَحِبْتُ فِي بِلادِ فَارِسَ تُجّارًا مِنَ الرُّومِ، واسْتَمَعْتُ إلَيهِم، وهُمْ يَتَحَدَّثُونَ اليُونَانيَّةَ، وَاللاَّتينيّةَ، وتَعَلَّمْتُ مِنْهُم مَا يَكْفِي لِلحَديثِ مَعَ اليُونانيِّينَ والرُّومانِّيينَ. وَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تُسافِرَ يا داوُدُ إلى بِلادِ الرُّومِ فِي الأَناضول، وبيزَنْطة. ولِذلِكَ سَتَحْفَظُ عَنّي مَا أَعْرِفُه مِنَ اللُّغَتَيْنِ اليُّونانيّة واللاَّتينيّة، أَنْتَ ومَنْ سَيَكونَ رَفيقًا لَكَ، فِي سَفَرِكَ إلى تِلْكَ البِلادِ، وإقامَتِكَ هُناكَ. ومِنْ حُسْنِ حَظِّكَ أَنَّ دِيارَ الأَناضُولِ كُلِّها، قَدْ خَضَعَتْ لِحُكْمِ الأَتْراكِ العُثْمانيّينَ، مُنْذُ أَنْ فَتَحَ مُحَمَّدُ الفاتِحُ القُسْطَنْطينيّةَ»، ولَسَوْفَ تَكونُ فُرْصَةً لَكَ، ولِرَفيقِكَ، لِتَعَلُّمِ اللُّغَةِ التُّركيّةِ أَيضًا.

- وامْتَثَلَ (أَطاعَ) «داوُدُ» لأُسْتاذِهِ الحَبيبِ، وحَفِظَ عَنْهُ مَعَ مَنْ سَيَكُونُ رَفيقَهُ فِي سَفَرِه، ومُرْشِدَهُ بَقيّةَ عُمْرِه، أَلفاظًا، وجُمَلاً، مِنْ لُغَةِ اليُونانِ، ولُغَةِ الرُّومانِ، والطَّبيبُ المُعَلِّمُ يَضْبِطُ لَهُما النُّطْقَ، ويُدَقِّقُ مَعَهُما فِي مَخارِجِ الحُروفِ، ويُوَضِّحُ لَهُما المَعانِي، ويُحَدِّدُ لَهُما مَوْضِعَ كُلِّ سُؤالٍ، ومَوْطِنَ كُلِّ جوابٍ.

وَداع

كانَ رَفيقُ «داوُدَ»، هُوَ «أَحْمَدَ»، وكانَ ابنَ عمٍّ له، وكانَ مُعلِّمًا مِن مُعَلِّمِي الصِّبْيَانِ، قَد وَعَدَ أَبَا داوُدَ أَن يَنْذِرَ ما بَقِيَ مِن عُمرِهِ، لِيَكونَ رَفيقًا لابنَ عمِّه «داوُدَ» إلى الأَبَد.

وكانَ الاثنان: «داوُدُ» و«أَحْمَدُ»، قَد صارَا مُسْتَعِدَّيْنِ لِلسَّفَرِ والاغْتِرابِ والتَّرحالِ، طَلَبًا لِلعِلْمِ حَيثُمَا كانَ. وقَالَ «عُمَرُ» لولَدِهِ «داوُدَ»، قَبْلَ أيّامٍ مِنْ سَفَرِهِ:

- إن شِئْتَ زَوَّجْنَاكَ، حَتّى لا تَفْتِنَكَ نِساءُ الرّوم، وحتّى يَخْلُوَ بَالُكَ لِمَا تَطلُبُه مِنَ العِلْمِ يا داوُدُ.

لكِنَّ داوُدَ قالَ لَه:

- لاَ زَواجَ لِمَنْ يَطلُبُ عِلمًا مِثلي، ويَتَحَرَّكُ مَعَ رَفيقٍ، إلاَّ حِينَ يَسْتَقِرُّ بِي المُقامُ، فِي مُقْبِلِ السِّنين.

وَوَدّعَ «داوُدُ» وابنُ عَمِّه الأَهلَ، والطَّبيبَ الفارسِيَّ، ورَكِبَا فَرَسَيْنِ، واتَّجَهَا إلى الشَّمَالِ. يَتْبَعُهُما خادِمٌ على بَغْلَةٍ، وكَانَت تَسيرُ خَلْفَ الكُلِّ بَغلَتانِ أُخْرَيَانِ، مُحَمَّلَتانِ بِقِرَبِ المَاءِ، والأَطْعِمَةِ المُجَفَّفَةِ، والمُقَدَّدَة.

تاريخ مدينة

فِي الطَّرِيقِ قالَ ابنُ العَمِّ «أحمدُ» لداوُدَ:

- اللَّهُ وَحدَه يَعلَمُ مَتَى نَعودُ إلى أَنْطاكِيَةَ.

فَقَالَ لَه «داوُدُ»:

- أَكْثَرُ مَكانَ سَأَحِنُّ إليهِ بِهَا، هُوَ أَطْلالُ هَذا المَسْرَحِ الرُّومَانِيِّ. فَفَوْقَ مَقاعِدِه الحَجَرِيَّةِ، كُنتُ أَجلِسُ، وَأُفَكِّرُ، وأَسْتَعيدُ دُروسِي، وَحيدًا، عَصْرَ كُلِّ يَوْمٍ.

وَالْتَفَتَ «داوُدُ» إلى ابْنِ العَمِّ، وأَضافَ:

- الغَريبُ أَنَّنِي لاَ أَعْرِفُ حَتّى الآنَ تاريخًا لأَنْطاكِيَةَ، مِثْلَمَا أَعْرِفُ جُغْرافيتَها وأَهْلَها. أَنْتَ يا ابْنَ العَمِّ مُعَلِّمٌ فَأَخْبِرْنِي.

فَضَحِكَ ابْنُ العَمِّ، وقالَ:

- حينَ انْتَشَرَتِ المَسيحِيَّةُ، صَارَ فِي «أَنْطاكية» ثَلاثَةُ بَطارِكَةٍ لِلمَذاهِبِ: المَلَكانِيَّةِ، والمَارُونِيَّةِ، واليَعْقُوبِيَّةِ. وَقَد سَقَطَتْ أَنْطاكيةُ فِي قَبْضَةِ الفُرْسِ، ثُمَّ اسْتَرَدَّها الرُّومانُ، ثُمَّ فَتَحَهَا العَرَبُ على يَدِ «أَبِي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرّاحِ»، ثُمَّ اسْتَولَتْ

عَلَيها الإمْبراطُورِيّة البيزَنْطِيّة، فَالسَّلاجِقَةُ الأَتْراكُ، فَالصَّلِيبِيّونَ، فَالمَماليكُ المصريّونَ. وهَاهِيَ أخيرًا قَد خَضَعَتْ للأَتْراكِ العُثْمانِيّينَ، رُبَّمَا في العامِ الّذي وُلِدتَ أَنْتَ فيه، أَو بَعْدَهُ بِقَليلٍ.

وكَانَا يُواصِلانِ سَيْرَهُمَا بالجيادِ والبِغالِ، ويَتَوَقَّفانِ مَعَ اللَّيلِ في الطَّريقِ، ويَأْوِيانِ إلى خانٍ (نُزُل = فُنْدُق صَغير) صَغيرٍ، عَلى الطَّريقِ، مِن هَذِهِ الخانَاتِ، المُسْتَعِدَّةِ فِي اللَّيلِ والنَّهارِ، لِراحَةِ المُسافِرين.

قَرنُ الحَرب

مُنذُ العَقدِ الثاني، مِنَ القَرْنِ السّادِسِ عَشَرَ الميلادي، الذي عاشَ فيه «داوُدُ بنُ عُمَرَ «الأنطاكِيّ»، وقَد اسْتَولَى العُثْمانيّونَ عَلى الشّامِ، مِصرَ، وغَربِيِّ جزيرةِ العَرَبِ (الحجاز)، وشَمالَ غَربِيِّ فارِس، والعِراق، وجَزيرَتَي: رُودِس، وقُبْرُص، وبِلادَ المَجَرِ بِأَسرِها. وبَسَطُوا سِيادَتَهُم الاسميّةَ على الشَّمالِ الإفريقيِّ كُلِّه. ولَقَدْ بَلَغَتْ الإمبراطُوريّة العُثْمانيّة في هَذا القَرنِ أَوْجَ (قِمّة) اتِّساعِها، وعِزَّ سُلْطانِها، وغايَةَ شُهرَتِها

ومَجْدِهَا، قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ فِي طَرِيقِ انْحِدارٍ طَوِيلٍ، لاَ يَكادُ يَحِسُّ بِهِ أَحَد.

وكانَ الرُّوسُ، بِقِيادَةِ الإمبراطور «إيفان الرهيب» يَقُومُونَ بِتَطهِيرِ حَوْضِ «نَهْرِ الفُولْجَا»، وَيَرُدُّونَ جُيُوشَ الدَّوْلَةِ الصَّفَوِيَّةِ الشِّيعِيَّةِ إلى الوَراءِ، فَتَوَسَّعُوا فِي بِلادِ فَارِسَ، وَحَمَّلُوا أَهْلَهَا بِحَدِّ السَّيْفِ عَلَى مَذْهَبِ الشِّيعَةِ، مِثْلَمَا فَعَلُوا مِن قَبْل، فِي بِلادِ مَا وَرَاءِ النَّهْرِ (شَرْقِيّ بُحَيْرَةِ قَزْوِين) وفِي أَفغانستان.

وفِي هَذَا القَرْنِ الذِي عاشَ فِيه «داوُدُ» ضَعُفَت أَسْبابُ الاتِّصالِ بَيْنَ الشَّرْقِ والغَرْبِ، والشَّمالِ والجَنُوبِ وكَانَتْ لِهذَا الضَّعْفِ عَواقِبُ وَخيمةٌ (شَديدةُ السّوء). فَالفِكرُ الفَارِسِيُّ الإسلامِيّ، قَد صارَ عاجزًا عَن إثارةِ رُوحِ التَّقَدُّمِ فِي العالَمِ الإسْلَامِيّ.

وفِي هَذَا القَرْنِ أَثارَ البُرتُغالِيّونَ نُذُرَ شُرُورٍ اقْتِصَادِيّةٍ خَطيرةٍ، عَلى المَشْرِقِ العَرَبِيّ بِأَسْرِهِ، وخاصّةً مصرَ. فَقَدْ بَلَغَ «فاسْكُودي جاما» بِسُفُنِه ومَدافعِه الحَرْبِيَّة، الهِنْدَ، عَن طَرِيقِ رَأسِ الرَّجاءِ الصَّالِحِ، وأَقامُوا مُسْتَوطَنات عَسكَرِيّةً على طُولِ السَّاحِلِ الشَّرقِيِّ لإفريقيّةَ، وفِي عُمَانَ، وهُرْمُز، وجَزيرَةِ «سُقُطرى» اليَمَنِيّة، وشَنُّوا حَمَلاتٍ عَسكَرِيّة عَلى الحَبَشَة، فَتَحَوَّلَت التِّجارةُ بَينَ الشَّمالِ والجَنوبِ، عَبْرَ دِلْتا النِّيلِ والبَحْرِ الأَحْمَرِ، إلى طَرِيقِ رَأسِ الرَّجاءِ الصَّالِحِ. وبَدَأَ غِنَى مِصرَ الهائِلِ، والبُنْدُقيَّةِ، في الانحدارِ إلى مَهاوِي الفَقْرِ. ومَهَّدَ هَذا الانحدارُ الطَّرِيقَ، لِكَيْ يَحتَلَّ العُثمانيّونَ مصرَ والشّمالَ الأفريقِيّ، وينزَحُوا (ينقلوا) إلى الأناضُولِ خَيْرَةَ العُلَماء، والكُتُب، والعِمالَةَ الفَنِّيَةَ الحِرَفِيّةَ الماهِرَة.

وَفِي هَذَا القَرْنِ هاجَمَ الجَزائِرِيّونَ، والتّونسِيّونَ سَواحِلَ أَسْبانيا، وهاجَمَ العُثْمانِيّونَ جَبَلَ طَارِق، ومَدِينةَ «نِيس»

(بفرنسا)، ومَدينةَ «أوترانتو» بإيطاليا، وسواحلَ صقلّية، واستولَوْا على بلادِ البلقان بأسرِها، إلى بَحْرِ «الإدْراتيك».

وهكذا كانَ القَرْنُ السّادسُ عشَرَ، قَرنًا عاصفًا بالحُروب، وتَغيُّرِ موازينِ القُوى بينَ الشَّرقِ والغَرب، والشَّمالِ والجَنوب، فَسَرَت (انتشرت) الانهياراتُ الاقْتصاديّةُ في بلادِ الشَّرقِ والجَنوب. ومَعَ هَذه الانهياراتِ بَدَأَ التَّخلُّفُ الثّقافيُّ والعلميُّ والفَنّيُّ، في الشَّرقِ والجَنوبِ، بِقَدْرِ ما بَدأَتِ النَّهْضَةُ في بلادِ الشَّمالِ.

وكانَ على «داوُدُ بن عُمَرَ الأنطاكي» الكَفيفُ البَصَرِ، وَوَسْطَ هَذا الدَّمارِ في المَشْرِقِ كُلِّهِ، أن يكونَ طَبيبًا عالمًا، ومُؤَلِّفًا في الطِّبِّ، والصَّيْدَلَةِ.

العودة إلى أنطاكية

أتقَنَ «داوُدُ» خلالَ سَنَوات عَديدة، اللُّغَةَ اليُونانيّةَ واللاّتينيّةَ والتُّركيّةَ، وحَصّلَ مَعارفَ الطِّبِّ اليُونانيِّ مَعَ ابنِ عَمِّه، وعادا مَعًا إلى «أنطاكيَة»، يَحمِلانِ مَعَهُما، على ظُهورِ البِغالِ صَناديقَ مَلأَى بِالكُتُبِ المَنسوخَةِ.

وحَزِنَ «داوُدُ» حينَ عَلِمَ بِخَبَرِ وَفاةِ أبيه، وَأُمِّه، وذَهَبَ لِزيارَةِ قَبْرَيْهِما، وجَلَسَ «داوُدُ» يَقْرَأُ الفاتِحَةَ على رُوحَيْهِما. وخاطَبَ أَباهُ، في مَثْواهُ (قبره)، بِصَوتٍ مَسْمُوعٍ، قائِلاً:

- وَدِدْتُ لَوْ كُنْتُ مُبْصِرًا، لأحملَ في قَلْبي صُورَةَ وَجْهِكَ يا أَبي.

وفُوجِئَ «داوُدُ» بِالطَّبيبِ الفارِسِيّ «بَهْزادْ»، يَجلِسُ بِجانِبِهِ، ويَقولُ لَهُ:

- رَحلَتْ أُمُّكَ عَنَّا أوّلاً، وَوَدَّعَ أباكَ الدُّنيا بَعدَها، قَبلَ شَهرٍ فَقَط يا داوُدُ. و«أنطاكية» بِأسرِها تَنْتَظِرُكَ لِتكونَ رَئيسًا لِقَرْيَةِ «حَبيبِ النَّجّار»، وطَبيبًا لِمَرضاها. وقَد تَرَكَ لَكَ أبوكَ ثَروةً طائِلَةً ضَخْمَةً، فَأَنْتَ ابنُه الوَحيد.

وبِرَغْمِ حُزْنِ «داوُدَ» فَقَد فَرِحَ لِسَماعِ صَوتِ مُعَلّمِه، فَعانَقَه، ومَشَى وإياهُ عائِدَيْنِ إلى بَيْتِ الأَهْلِ، مَعَ ابنِ العَمِّ، وكانَت خُطَى «داوُدُ» ما تَزالُ تَذْكُرُ طُرُقاتِ «أنطاكية»، يَنْحَرِفُ مَعَها حينًا، ويَصْعَدُ حينًا، ويَنْحَدِرُ وإيّاها حينًا آخَرَ.

وفي بَيتِ الأَهْلِ، وَقَد انْقَشَعَتْ (زالت) غَمامَةُ (سحابة) الحُزْنِ، جَلَسَ «داوُدُ» وابنُ العَمِّ، يُحَدِّثانِ «بَهزادَ» عَن بِلادِ آسيا

الصُّغرى، والعُثمانيِّينَ، والرّومانَ البيزَنطيِّينَ، الذين آثرُوا (فضّلوا) البَقاءَ، مَعَ الأتراكِ، فِي المُدنِ والقُرى. وكانَ «بَهزَادُ» قَد بَلَغَ الغايَةَ مِنَ الكِبَرِ فِي السِّنّ، وآثَرَ البَقاءَ مَعَ أهلِهِ فِي أنطاكية، بَعيدًا عَن بَطشِ الصَّفَويِّينَ الشّيعِيِّين، وصِراعَاتِهم الحَربيّة مَعَ الأتراكِ العُثمانيِّين.

سأرحل إلى مصر

وَأعلَن «داوُدُ» فِي اللَّيلِ، لِبَهزَادَ، وأعيانِ قَريَةِ «حَبيب النّجّار»، أنَّهُ سَيُغادِرُ أنطاكيةَ إلى مِصرَ. فَمِصرُ لاَ تَزالُ دارًا للعِلمِ والعُلَماءِ، والمَماليكُ لا يَزالُونَ يَحكُمون مِصرَ، مِن قِبَلِ العُثمانيِّينَ، فَلَمْ يَتَغيَّرْ فيها شَيءٌ كَثيرٌ، عَدَا تَدفُّقِ التِّجارَةِ، عَبرَهَا، بَينَ الشَّمالِ والجَنوبِ. وفِي مِصرَ ثَمّةَ عِلمٌ كثيرٌ، ما يَزالُ هُوَ بِحاجَةٍ إليهِ.

وَتفهَّمَ أعيانُ القَريَةِ رَغبَةَ «داوُدَ»، وَعرَضُوا عَلَيه شِراءَ مَا وَرِثَه مِن مَتاجِرَ، عَقاراتٍ، ومَزارِعَ، لِيَستعينَ بِثَمَنِها عَلى حَياةٍ وادِعَةٍ فِي مَدينَةِ القاهِرَة.

وقالَ «بَهزَادُ» بِقَلَقٍ عَلى «دَاوُدَ»:

- كَيفَ تَرحَلُ وَحدَكَ، وتُقيمُ وَحدَكَ، فِي مَدينةٍ مِثلِ القَاهِرة، وهي واسِعَةُ الأرجاءِ، مُزدَحِمَةٌ بالنّاسِ؟

فَسارَعَ ابنُ العَمِّ يَقولُ:

- عَاهَدتُ «داوُدَ» عَلى البَقاءِ مَعَه. وسَأظَلُّ لَه، مِثلَمَا كُنتُ، القَارِئَ الذي يَقرَأُ لَهُ، والكَاتِبَ الذِي يُملِي عَلَيه، والدَّليلُ الذِي يَسيرُ مَعَه فِي الطَّريق.

وَضَحِكَ ابنُ العَمِّ، وقالَ لداوُدَ:

- فِي مصرَ، يا ابنُ العَمِّ، سَنَتزَوّجُ مِن بَناتِ مِصرَ.

هنا المُقام

هَبَطَ «داوُدُ» وابنَ عَمِّهِ، أرضَ مِصرَ، واستَقَرّا بِحَيِّ الأزهَرِ فِي القاهِرة. وَولَّى «داوُدُ» وَجهَهُ شَطرَ (نحو) البِيمارستانات القَاهِرِيّة، وخاصّةً البِيمارستان المَنصُوري.

وكَانَتْ بها، آنذاك، مكتبَاتٌ غَنيّةٌ بِكُتُبِ التُّراث، وبالأطبّاءِ العُلَماءِ، مِن أهلِ مِصرَ، ومِنَ المُهاجِرينَ إليها، هَرَبًا مِنَ الفِتَنِ والاضطِرابَات.

وَوَجَدَ «داوُدُ»، فِي القاهِرة، المَلْجَأَ، والأَمْنَ، والعِلْمَ، فَالمَدِينةُ هادِئَةٌ، لاَ يُحِبُّ أَهلُها سَفْكَ الدِّماء، والتَّدَيُّنَ بِها مُعْتَدِلٌ، لاَ تَزَمُّتَ فِيهِ وَلاَ تَقصِيرَ، والمُواطَنَةُ فِيها حَقٌّ لِلمُسْلِمِ والمَسِيحِيِّ واللاجِئِ والمُغْتَرِب. واطْمَأَنَّ قَلْبُ «داوُدَ»، فَقالَ لابن عمِّه:

- هُنا المَقامُ، يا أَحْمد، إلى أن يَشاءَ اللّهُ.

وتَزَوَّجَ الاثْنَانِ، وعَكَفَ «داوُدُ» فِي البِيمارستان المَنْصُورِيِّ، عَلَى كُتُبِ الطِّبِّ العَرَبِيّة، يَقْرَأُ لَهُ ابنُ العَمِّ، ويُمْلِي هُوَ عَلَيه مُلاَحظَاتِه، فَيُدَوِّنَها (يَكتُبُها) أَوَّلَ بِأَوَّلَ، لِيَرجِعَ إِلَيْها حِينَ يَشاء.

دراسة منظَّمة

في القَاهِرَة، وفِي البيمارستان المَنْصُورِيِّ، دَرَسَ «داوُدُ»، دِراسَةً مُنَظَّمَةً، كُتُبَ السّابِقينَ، فِي عِلْمِ الدَّواءِ (الصّيدلة)، عَن الأَدْوِيَةِ المُفْرَدَةِ، والمُرَكَّبَةِ، والنَّبَاتيّة، والحَيَوانيّة، والمَعدنيّة، وعَرَفَ أَسماءَهَا التي يَتَعامَلُ بِها أَطبّاءُ مِصرَ، ومَصادِرَهَا، وقُوَاها، وأَهَمِّيَتَها في عِلاجِ الأَمراضِ، وعَرَفَ المَزِيدَ عَن الأَمراضِ، وأَعراضِهَا، وأَسبابِهَا، وعِلاجِهَا، وأَضافَ إِلَيْها ما عَرَفَه وهُوَ بِالشّامِ، وتُركيا، فاجتَمَعَت لَدَيهِ مَعرِفَةٌ طِبِّيَّةٌ نَباتيَّةٌ،

بَلَغَ عَدَدُهَا ثَلاثَةَ آلاف نَباتًا، حَصَّلَها مِن كُتُبِ التُّراثِ العَرَبِيّةِ، واليُونانِيّةِ، والفَارِسِيّةِ، وقَرَأَهَا بِلُغاتِها، وكانَتْ قَائِمَةُ عُلَماءِ هَذِهِ المَعْرِفَةِ بِالدَّواءِ، كَثِيرَةُ الأَسماءِ، غَزِيرَةُ العَطاءِ، وَبَينَ هَذِهِ الأَسماءِ، كانَ ابنُ رَبَن الطَّبَرِيّ، والكِنْدِيُّ، والرّازِيُّ، وابنُ العبَّاس الأَهْوازِيّ، وابنُ الجَزّارِ، وابنُ سِينا، والبِيرونِيّ، وابنُ ماجه، وابنُ التِّلميذ، والغَافِقِيُّ، والإدرِيسِيُّ، وابنُ مَيمونَ، وابنُ البيطارِ، وكُوهِين العَطّار.

وقُدِّرَ لِداوُدَ أَن يَكونَ هُوَ آخِرُ العُلَماءِ العَرَب بالدَّواءِ، وأَنْ يُؤَلِّفَ فِيهِ، هُوَ الكَفيفُ البَصَرِ، أَكْبَرَ وأَخْلَدَ وَأَشْهَرَ كِتابٍ، فِي عِلْمِ الدَّواءِ.

سرّ الحبّ

وذَاعَتْ شُهْرَةُ «داوُدَ» فِي البيمارستان، ومَدينةِ القَاهِرةِ، وَضَواحِيها، كَطَبِيبٍ مُعالِجٍ لِلفُقَراءِ والأَغنياءِ، فِي حَيِّ الأَزْهَرِ. فَعُيِّنَ بِالبِيمارِستَان المَنْصُورِيّ رَئِيسًا لِلعَشّابِينَ فِي ذَلِكَ الحِينِ (الصيادلة). وتَعَزَّزَتْ مَكانَتُه في البيمارستانِ، مَعَ السَّنَوات، حَتّى دَعاهُ إِلَيهِ رَئيسُ البِيمارستان ذاتَ لَيلَةٍ، وقَالَ لَهُ:

- يَا داوُدُ. آنَ لَكَ أَنْ تَشْغَلَ مَكَانِي، رَئِيسًا لِهَذَا البيمارستان، فَقَدْ كَبِرْتُ فِي السِّنِّ، وَآنَ لِي أَنْ أَستَرِيحَ مِن عَناءِ العَمَلِ، وقَدْ اختارَكَ الأَطِبّاءُ، فِي هَذا البيمارسْتَانِ لِتَكونَ رَئيسًا لَهُم. إِنْ قَبِلْتَ، سَيُصْدِرُ الوالِي العُثْمانِيّ، قَرارًا بِتَعيينِكَ فِي هَذَا المَنْصِبِ. وأَرَى أَنْ تَقبَلَه، فَلَكَ مِنْ نُورِ البَصِيرَةِ، وَحُبِّ المِهْنَةِ، مَا يَجعَلُكَ أَهْلاً (جديرا) لِهَذا المَنْصِبِ.

وقَبِلَ «داوُدُ»، فَقَالَ لَهُ رَئِيسُ البِيمارستَانِ، ضَاحِكًا:

- كَيْفَ أَحَبَّكَ النّاسُ يا داوُدُ؟ العِلْمُ والمَهارَةُ لاَ يَكْفِيانِ لِكَسْبِ قُلوبِ الأَغْنِياءِ والفُقَراءِ.

فَقالَ لَهُ «داوُدُ» بِتَواضُعٍ:

- هَذَا مِن نِعْمَةِ اللّهِ. وأَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ يَرجِعُ إِلى أَمْرَيْنِ: فَأَنَا أُعَلِّمُ النّاسَ كَيْفَ يُحافِظُونَ عَلى صِحَّتِهِم بِالوِقَايَةِ. وكَيْفَ يُعالِجُونَ أَنْفُسَهُم حِينَ يَمْرَضُونَ، خَاصّةً فِي الأَحْوالِ الَّتِي لاَ تَدعُو إِلى اسْتِشارَةِ الطَّبِيبِ.

ألقاب

وَمَنَحت مَدينة القَاهِرَة، عَلى ألسِنَة الأطبّاء، والنّاسِ «داوُدَ بنُ عُمَرَ الأنطاكيّ» ألقابًا، يَفخَرُ بها ويَزهُو أيُّ عالِمٍ طَبيب، وبَينَ هَذهِ الألقاب، كانَت ألقابُ: أبقراط زمانه، والعَلاّمَةُ الطَّبيب، والحَكيمُ، والمَاهِرُ، والفَريدُ، والطَّبيبُ الحاذِقُ (الماهر)، والعالِمُ الكامِلُ، وَ.. الصَّيدَلانيُّ الضَّرير.

وجَلَسَ «داوُدُ» ذاتَ لَيلَةٍ، مَعَ ابنِ عَمِّهِ، وقالَ لَهُ:

- أعِدَّ لَنا أوراقًا، وأقلامًا، وأحبارًا، فَقَد عَزَمتُ على ألاّ تَذهَبَ خِبرَتي بِالصَّيدَلَةِ مَعي، حينَ أُوَدِّعَ الدُّنيا. لَقَد جاوَزتُ مِنَ العُمرِ خَمسةً وخَمسينَ عامًا يا ابنَ العَمِّ. وصارَ مِن حَقِّ العِلمِ عَلَيَّ، أن أُدَوِّنَ (أسجل) خِبرَتي، ومَعارِفِي، بِالدَّواءِ.

وكانَ السُّلطانُ العُثمانيّ «سُلَيمان الأوَّل» قَد تُوُفِّيَ في ذَلكَ العام، وتَوَلّى مَكانَهُ السُّلطان سَليم الثّاني، وَوَلِيَ أمرَ مِصرَ، مِن قِبَلِ العُثمانيّين، والٍ جَديد.

من الذاكرة

فِي السَّنَوات التّالِيَة، وطَوالَ أكثَرَ مِن رُبعِ قَرنٍ، راحَ «داوُدُ» يُملِي عَلى ابنِ عَمِّهِ، ومِن ذاكرَتِه القَويّة العَجيبة، كتابًا في ثَلاثَة مُجلَّدات، عَنِ الأدوِيَةِ المُفرَدَة، والمُركَّبَة، مِنَ النَّباتات، والمَعادِنِ، والحَيَوانات، ونادِرًا ما كانَ يَتَوقَّفُ، لِيَتَثَبَّتَ لِنَفسِهِ ولِلعِلمِ مِن أمرٍ شَكَّ فيهِ، أو غابَ عَنهُ، فَيَطلُبَ مِن ابنِ عَمِّهِ أن يَفتَحَ لَهُ مَرجِعًا بِعَينِه، ويَقرَأَ لَهُ فِي فَصلٍ بِعَينِه، مَعلومات بِعَينِها، عَن نَباتٍ، أو حَجَرٍ، أو مَعدِنٍ، أو حَيَوان. ثُمَّ يُواصِلُ الإملاءَ مِن جَديد، عَن أنواعِ العِطارات عِندَ العَشّابين: العِطاراتُ المُرَّة؛ والأفاويه (التوابل)؛ والبَلاسِمُ؛ والعِطارات المُسَهِّلَةُ المُلَيِّنَةُ؛ والقابِضَةُ، والعِطاراتُ المُنَوِّمَةُ والمُخَدِّرَةُ... عَن: الكينا، وجَوزِ القَيء، والهِندُباء، والدّاتورَة، والخَشخاش، والكَسكَرَة، والبُنِّ، والشّاي، والحِلبَة، وعُودِ رِيحِ المَغرِبي، وقِشرِ الرُّمّان، والعَكنَة اوالسُّورَنجان، وعِرقِ الذَّهَب.. وعَنِ السَّنامكَّة، والعشبة، والبابُونج، والرّاوند، والتَّمرِ هِندي، والخَردَلِ، والحَنظَلِ، والصَّبر.. وعن القِرفَةِ، والكَراويا، والشَّمَر، واليَنسُون، والكُزبَرَة،

والكافُور، والزَّنجبيل، وجَوْزِ الطِّيبِ، والبُهارِ، وكُبَابَةٍ صِينِي، والمُرِّ، والجَاوِي والبَلَسَم، والحَنْتيت، والمَيْعَة السائلة، والمُصْطَكي، والكَثيرا، والعَنْبَرِ، والقَنَاوسَق، وآلاف سِواها مِنَ النَّباتات، فَضلاً عَن المَعَادنِ، وأَجزاءِ الحَيَوانَاتِ.

ملح الطّعام

وحينَ وَصَلَ «داوُدُ» إلى ملحِ الطَّعامِ، قالَ لابنِ العمِّ: اكتُب يَا أَحْمَد.

فَضَحِكَ «أَحْمَدُ» وقالَ:

– لَم أَتَوَقَّفْ عَن الكِتابةِ قَطّ.

وَلَم يَضْحَك «داوُدُ» لِدُعابةِ ابنِ العَمِّ. كانَ رَأسُهُ مَشغولاً بِمَا سَيُمليهِ. قال:

«المِلحُ إمّا مَعدنِيّ، ويُسَمَّى: البَرِّيّ، والجَبَلِيّ، وإمّا مائِيّ (يُستخرج من مياه البحيرات والينابيع والبِحار). ويُطلَقُ عَلَى: التِّنْكَار، والقَلَي، والبُورَقِي، والأَنْدرَاني (كلّها أنواعٌ مِنَ المِلح). وكُلّه يَستَأصِلُ (يقضي على) البَلغَمِ، والرُّطوبات اللَّزِجَةِ، والسَّدَد

(في الشّرايين)، ونَزْفِ الدَّم، وَوَجَعِ الأَسْنانِ، واللَّحْمِ المَيِّتِ، ويُدْمِلُ الجِراحَ؛ ويُذْهِبُ الحَكَّةَ، والقُروحَ، والجُدَرِيّ مَعَ الأَدْهانِ، خُصوصًا مَعَ الزَّيْتِ؛ ويَمْنَعُ التّخَمَ، وفَسادَ الأطعِمَةِ، ويُحَسِّنُ اللَّوْنَ، ويُنَظِّفُ المَعِدَةَ، ويَقِي مِنَ الجُذامِ».

ليتَ الشَّباب

وحِينَ انتهى «داوُدُ» أَخَذَ «أَحمد» يُحرِّكُ أَصابِعَه المُجهَدة، لِيُريحَها، ثُمَّ قال:

- قَرَأتُ فِي الكُتُبِ عَلَيكَ عَن هَذا كُلِّه. هُناكَ فِي تركيا، وفِي دِمَشْق، وهُنا فِي مِصرَ، لَكِن حافِظَتِي (ذاكِرَتِي) لَم تَعِ كُلَّ مَا أَمْلَيْتَهُ عَلَيَّ، ولَم تُمَيِّز بَينَ هَذا وذاكَ.

فَضَحِكَ «داوُدُ» وقال:

- لَو كانَتْ لَدَيْكَ ذاكرةٌ مِثلُ ذاكِرَتِي، وَلَو كَانَتْ لَدَيْكَ الرَّغبةُ فِي التَّحصيلِ، لَمَا وَجَدْتُ ابنَ عمٍّ مِثْلَكَ، أُمْلِي عَلَيهِ، ولَرُبَّما كُنْتَ قَد صِرْتَ، أَنْتَ الآخَرَ، عَالِمًا بِالدَّواءِ.

فَقالَ ابنُ العَمِّ:

- إنِّي سَعِيدٌ بِصُحْبَتِكَ يَا داوُدُ، وأَشْهَدُ أَنَّكَ جَمَعْتَ مَا تَفَرَّقَ فِي الكُتُبِ، ومَيَّزْتَ بِالخِبْرَةِ بَينَ مَا اخْتَلَفَتِ الأقوالُ فيه، بَينَ الأَطِبّاءِ، وعُلَماءِ النَّباتِ. لَكِن..

فَقالَ داوُدُ:

- ماذَا يا ابنَ العَمِّ؟

فقالَ «أحمدُ» جادًّا:

- كَبِرْنَا فِي السِّنِّ مَعًا يَا داوُدُ. وبِوُدِّ كُلِّ النّاسِ، أَن يَعْرِفُوا مِثْلَنا، مَا يُعِيدُ القُوَّةَ إِلى الكُهولِ والشُّيوخِ.

فَضَحِكَ «داوُدُ» ضَحِكًا طَوِيلاً عالِيًا، ثُمَّ قال:

- كُلُّ النّاسِ.. أَمْ.. أَنْتَ يَا ابنَ العَمِّ؟

وأَضاف:

- عَلَيْكَ بِالتَّوابِلِ، واليَنسون، والقُرنفُل، والقَرفة، والنَّعناع، والبَقدُونس، والثُّومِ، والبَصَلِ، والفُلْفُلِ، والبُهارات، والشَّطة، وجَوْزَةِ الطِّيبِ، وجُذورِ الكَرفس، فاجعلْها فِي طَعامِكَ مِن العَسَلِ، والبَيْض، والحَمَام، والشِّواء (الكباب)، والكَلاوِي، واللَّوْزِ، والفُولِ

الأَخْضَرِ، والأَسْمَاكِ ذاتِ الأصدافِ. وعلَيْكَ بفُلِّ البُنْدُقِ، وزَيْتِهِ، والمِسْكِ، والعَنْبَرِ، فاجْعَلها فِي شَرابِكَ. وإذا أَرَدْتَ أن تَتَسَلَّى بَينَ الطَّعامِ والطَّعامِ، فَعَلَيْكَ بِأُمِّ الخُلُولِ، وأمثالِها مِن ذَواتِ الأَصدافِ. وارجِعِ فِي هَذا كُلِّه إلى مَا أَمْلَيْتُه عَلَيْكَ.

وبَقِيت المقدّمة والذّيل

وَوَضَعَ «داوُدُ» عُنوانًا لكِتابه هُوَ: «تَذكِرَةُ أُولِي الأَلْبابِ والجَامِعُ لِلعَجَبِ العُجابِ فِي عِلْمِ الطِّبِّ». وحِينَ اطَّلَعَ عَلَيْهِ رَئِيسُ البيمارستان الأَسْبَقِ، هَالَه الجهْدُ الذي بَذَلَهُ «داوُدُ» فِي تَألِيفِه، وقَال:

– جَعَلتَ مَعارِفَ العلاجِ وَالتَّداوِي مُشاعَةً بَينَ كُلِّ النّاسِ يا داوُدَ، ولَمْ تَترُكْهَا حِكْرًا (وقفا) عَلى الأَطِبّاءِ. سَوفَ يَكرَهُكَ الأَطِبّاءُ الذينَ أَحَبُّوكَ لِذَلكَ يَا داوُدُ، فَمَرْضاهُم سَوْفَ يقِلُّونَ عَدَدًا

فَقالَ «داوُدُ» مُهَوِّنًا الأمرَ:

– يَا صَاحِبِي. أَكثَرُ النّاسِ فِي زَمانِنَا لاَ يَعْرِفونَ القِراءَةَ والكِتابَةَ، ولَن تَقِلَّ حَاجَةُ النّاسِ أَبدًا إلى الطَّبِيبِ، لِيُشَخِّصَ لَهُم أَمراضَهُم،

ويُداوِيَهُم منها. وأَظُنُّ أَنَّ كُلَّ مَا فَعَلْتُه، هُوَأَنَّنِي أَضَفتُ جَماعَةً مِنَ العَطّارِينَ إلى الأَطِبّاءِ، لِيُسْعِفُوا المَرْضَى، بِمَا يَحتاجُونَهُ مِن عِلاجٍ فِي الأمراضِ اليَسيرةِ، وَالوَعْكَاتِ العَابِرَةِ؛ وأَنَّنِي جَمَعْتُ كُلَّ مَا دَوَّنَهُ السَّابِقُونَ، وتَفَرَّقَ فِي بُطونِ الكُتُبِ، فِي كِتابٍ واحِدٍ، سَيَظَلُّ، فِيما أَرجُوه، مَرجِعًا لِلأَطِبّاءِ، والصَّيادِلة، والعَطّارِينَ.

وأَضافَ داوُدُ:

– عَلَى أَنَّ كِتابِي هَذَا، حِينَ فَكَّرْتُ فيه، وَجَدْتُه يَنْقُصُه أَمرَانِ، سَأَتَدارَكُهما مِنَ الغَدِ إِنْ شاءَ اللَّهُ.

فَقالَ لَه رَئِيسُ البيمارستان الأَسْبَق:

– ومَا هُمَا هَذانِ الأَمْرانِ؟

فقالَ «داوُدُ»:

– مُقَدّمَةٌ جامِعَةٌ فِي صُنوفِ العُلومِ، وبُحوثٌ أُخرَى فِي عِلْمِ الطِّبِّ والأَمْراضِ، وفِي الأَدوِيَةِ المُفْرَدَةِ وَالمُرَكَّبَةِ، وبَعْضِ الفَذْلَكاتِ (النّوادِر) والأَخبارِ، لِتَكونَ فِي الكِتابِ، مِثْلَ البُهارِ فِي الطَّعامِ.

عِندئذٍ قالَ ابنُ العَمِّ مُغاضِبًا:

- إذَن سَنُعيدُ كِتابَةَ ما كَتَبْنَاه.

وَضَحِكَ الثَّلاثَةُ. وقالَ رَئيسُ البيمارستان الأَسْبَق:

- هَذَا أمرٌ، وَالأمرُ الآخَرُ يا داوُدُ؟

فَقالَ «داوُد»:

- ذَيلٌ لِلكِتابِ، يَكونُ لَه خاتِمَةً، عُنوانُه: «تَزْيينُ الأَسْواقِ بِتَفصيلِ (تَرتيب) أَشواقِ العُشاقِ». فالمُحِبّونَ فِي زَمَانِنا يُعانُونَ أمراضَ النَّفسِ مِنَ الحُبِّ، ويَنْشُدونَ عِنْدَنا نَحنُ الأَطِبّاءُ، ولَدَى العَطّارينَ، مَا يُعينُهُم عَلى النِّسيانِ والسَّلْوَى، إذا عزَّ وَصْلُ الحَبيبِ، لِسَبَبٍ مِنَ أَسبابِ الفَقْرِ والغِنَى، أَو القُبْحِ وَالجَمالِ، أَوالصِّغَرِ والكِبَرِ فِي السِّنِ، والشَّرَفِ والضَّعَةِ. وسَيَكونُ هَذا الذَّيلُ، تَلخيصًا لكِتابِ «محمدٍ السَّراج» فِي هَذَا المَوضوعِ.

تذكرة داود

نَسَخَ الوَرّاقونَ كِتابَ «داوُدَ» فِي الطِّبّ والصَّيدَلَة، فَتَخاطَفَتْه أَيدي الخَاصّةِ والعَامّةِ، مَعَ الأَطِبّاءِ والعَطّارينَ، وسُرعانَ مَا نَسُوا اسمَ الكِتابِ، وصَارَ مَعرُوفًا بَينَهم باسمِ «تَذكَرَةُ داوُدَ»، ونَسُوا مَعَه كِتابًا آخَرَ لداوُدَ هُوَ: «البَهْجَةُ والدُّرَرُ المُنتَخَبَة فِي تَشحيذِ الأَذْهانِ، وتَعديلِ الأَمْزِجة»؛ ورَسائِلَ (كُتَيِّبات) عَن حَجَرِ الفَلاسِفة (الذّهب)، وعَن إدخالِ أَحكامِ النُّجومِ فِي عِلْمِ الطِّبِّ.

الإنسان .. والعلم

عامَ أَلف وثَمانية هِجريّة، أَلفٍ وخمسمائة وتسعةٍ وخَمسين ميلاديةَ، اجْتَمَعَ حَوْلَ «داوُدَ» فِي بَيْته بالأَزْهَرِ، عَدَدٌ من تَلاميذه ومُحِبّيه، وبَينَهُم أَطِبّاءُ وعطّارونَ، وهُواةٌ لِلمَعرفَةِ الطِّبِّيّةِ. وراح «داوُدُ» يَقولُ لَهُم حِكَمَه وَوَصاياه:

«يَكفِي العِلْمُ شَرَفًا أَنّ الكُلّ يَدّعيه، وكَفَى الجَهْلَ ضَعَةً أَنّ الكُلّ يَتَبرَّأُ مِنه»

«الإنْسانُ يَحتَرِمُ الإنْسانَ بِقَدْرِ مَا يَملِكُه من مَعْرِفَةٍ وعِلمٍ. وتَزْدادُ قيمتُه إذا مارَسَ مِهْنَةَ التَّعليمِ وَالتَّأليفِ».

«لَقد ارْتَفعَ مُسْتَوى الإِنسانيّةِ، حينَما استَلَمَ المُسْلمونَ مِهْنَةَ الطِّبِّ في العِلْمِ».

«الإنسانُ إنسانٌ بالقُوَّةِ إذا لَمْ يَعلَم، فإذا عَلِمَ كانَ إنسانًا بالفِعْلِ».

«عارٌ عَلى مَن وُهِبَ النُّطْقَ والتَّمييزَ، أَن يَطْلُبَ رُتْبَةً (مكانةً) دُونَ الرُّتْبَةِ القُصْوَى (العُلْيا) في المَعْرِفَةِ».

وَسَأَلهُ طَبيبٌ شابٌّ، قالَ لَهُ:

- مَا الذي دَفَعَكَ حقًّا إلى تأليفِ كِتابِكَ «التَّذكِرَةُ»، فَتَصدَّيت بِهِ لِمُهِمَّةٍ يهرب الكَثيرونَ مِنَ القيامِ بِها؟

فقالَ لَه «داوُدُ»:

- حينَ دَخَلْتُ مِصْرَ، رَأَيتُ فُقَهاءَ، وهُمْ مَرجِعُ الأُمورِ الدّينيّةِ، يَمشُونَ إلى يَهوديٍّ قَليلِ الشَّأنِ في التَّطبيبِ، ولَيسَ بِطَبيبٍ، فَعَزَمْتُ على أَنْ أَجعَلَ الطِّبَّ عِلْمًا مُشاعًا كَسائِرِ العُلومِ، يُدْرَسُ لِيَستَفيدَ بِه المُسْلمونَ.

- لَكنَّ سُفَهاءَ لازَمُوكَ، وتَعاطَوْا الطِّبَّ على يَدَيْكَ، ثُمَّ استَغَلّوا ذَلِكَ فَآذَوا النّاسَ في أَموالِهِم وأَبْدانِهِم، طَلَبًا لِلنَّفْعِ والكَسْبِ،

بِإطالَةِ أَمَدِ (مُدَّة) العِلاجِ.

فَقالَ لَه «داوُدُ»:

- يا بُنَيَّ، بي وبِدوني، سَتَجِدُ في كُلِّ مِهْنَةٍ، في كُلِّ بَلَدٍ، في كُلِّ زَمَنٍ، مَنْ يَفْعَلُ هَذا الشَّرَّ.

وتَنَهَّدَ «داوُدُ وقالَ:

- بِسَبَبِ هَذا البَعضِ مِمَّن لا ضَمائِرَ لَهُم، لُمْتُ «أبقراطَ» يومًا وانتقدتُه، لأنّه عَمَّمَ الطِّبَّ في زَمانه، وأعطاها لِكُلِّ النّاسِ، ثُمَّ رَجَعْتُ عَن هَذا اللَّوْمِ والنَّقْدِ، فَفَسادُ البَعضِ لا يَنبَغي أن يَحْجِبَ الخَيْرَ والنَّفْعَ عَن كُلِّ النّاسِ، ولا المَعْرِفَةَ عَن بَعْضِ النّاسِ، دونَ بَعْضِهم الآخَرِ.

وكانَتِ السّاعَةُ قَد قارَبَتْ مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ، فَنَهَضَ زُوّارُ «داوُدَ» مُسْتَأذنينَ، لِيُتيحُوا لَه فُرْصَةً لِيَرْقُدَ قَليلاً، قَبْلَ صَلاةِ الفَجْرِ، ثُمَّ يُغادِرَ دارَهُ، لِيَصْحَبَ قافِلَةً لِلحُجّاجِ، مُسافِرَةً إلى مَكّةَ عَبْرَ سيناء.

* * *

في مكّةَ أَدّى «داوُدُ بنُ عُمَرَ الأنطاكي» فَريضةَ الحَجِّ، وَلَمْ يَكَدْ يَنْتَهي مِنْهَا حَتّى وافاهُ الأَجَلُ، وهُوَ يُصَلّي الفَجْرَ في المَسْجِدِ

الحَرامِ. وعادَ الحَجيجُ بِدونِه، فَحَزِنَ عَلَيْه أَهلُ مِصرَ، وكانَ عَزاؤُهم فيه، وسَلواهُم عنه، فِي كِتابِه الخالِد «تذكرة داود».

وفِي أَرجاءِ الأرضِ، وَإِلى عَديدٍ مِن لُغاتِ العالَم، فِي العَصرِ الوَسيطِ وَالحَديث، تُرجِمَت «تذكرة داود»، وَأَعدَّ الأَطِبّاءُ عَنها التَّهذيبات، ولَها المُلَخَّصات.

وعَن «داوُدَ» وكِتابِه «التّذكِرة»، كَتَبتِ المَوسوعاتُ العالَمِيّة، وكَتَبَ كَثيرونَ مِنَ العُلَماءِ ومُؤَرِّخو العُلوم، والصّيادلة، فِي الشرقِ والغَرب. بَينَهُم «المُحِبّي» فِي كِتابِه «خُلاصةُ الأَثَرِ»، و«حَسَن عَبد السّلام» فِي كِتابِه «ذَخيرةُ العَطّار وتَذكِرة داوُدَ فِي ضَوءِ العِلمِ الحَديث»، و«جابِر الشُّكري» فِي كِتابِه «الكيمياءُ عِندَ العَرَب»، و«مُحمدُ فائز القَصْر» فِي كِتابِه «تاريخُ النَّبات عِندَ العَرَب»، و«مَحمودُ الحاج قاسِم محمد» فِي كِتابِه «المُوجَزُ لِمَا أَضافَهُ العَرَبُ فِي الطّبّ والعُلوم»، و«عَبدُ الحَليم مُنتَصِر» فِي كِتابِه «تاريخُ العِلمِ ودَورُ العُلَماءِ فِي تَقَدُّمِه»، و«بُروكِلمان»، و«فرنيه» و«لِكْلرك» فِي «دائِرةُ المَعارِف الإسلامِيّة»، التِي أَعَدَّها ونَشَرَها الفرنسيون.

* * *

ولَقَد ظَلَّت «تذكرة داوُدَ» المَرجِعَ فِي التَّداوِي مِنَ الأَمراضِ عَدَدًا مِنَ القُرونِ، فِي مَدارِس ومَعاهِد وكُلِّيات الطِّبّ فِي أوربا والعالَمِ الإِسلامِيّ. وهُوَ مَرجِعٌ جَعَلَ كُلَّ مَا قَبلَه مِن مَراجِعَ يَتَوارَى فِي الظِّلِّ، لَدَى الأَطِبّاءِ والعَطّارِين.

فَفِي «التّذكِرة» صَبَّ «داوُدُ» كُلَّ مَعارِفِ السّابِقينَ فِي التَّداوِي، وبِنظامٍ مُحكَمٍ جَديد، جَمَعَ فيه بَينَ مَعارِف العُلوم الشَّتَّى، الوَثيقَةِ الصِّلَةِ، بِالطِّبِّ والصَّيدَلة، وسَخَّرَها لِغَرَضٍ واحِد، هُوَ التَّداوِي والعِلاج بِأَدوِيَةٍ مُستَخلَصَةٍ مِنَ النَّباتات، وأَجزاءِ الحَيَوانات، والمَعادِن، كانَ قَد تَصَدَّى لَها قَبلَه بِالذِّكرِ، والشَّرحِ، والاختِبار، أَطِبّاءُ وعُلَماءُ عِظامٌ، مِنَ اليُونانِيِّينَ، والفُرس، والهُنود، والمِصرِيِّينَ، والعَرَب، والمُستَعرِبينَ بِالإسلام.

* * *

وفِي عَصرِنا الحَديث، يَشيعُ العِلاجُ بِالأَدوِيةِ الكيماوِيّة، مَعَ مُستَخلَصات طَبيعِيّة طِبِّيّة مِنَ النَّباتات، والمَعادِن، والحَيَوانات.

وفِي العُقودِ الأَخيرة، مِنَ القَرنِ العِشرين، تَعودُ؛ إِلى مَسرَحِ العِلاجِ الطِّبِّيّ، الأَدوِيةُ الطِّبِّيّةُ الطَّبيعِيَّة، لِتُنازِعَ الأَدوِيةَ الكيمياوِيَّةَ عَرشَها. وتُباعُ هَذِه الأَدوِيَةُ الآنَ فِي عَديدٍ مِن صَيدَلِيّاتِ أوربا،

طَازَجَةً ومُجَفَّفَةً، ويُقْبِلَ عَلَيها النّاسُ فِي صَيدلِيّات عَرَبِيّةٍ، وعِنْدَ العَطّارين، تَفاديًا للآثارِ الجانِبِيّة، لِلأدوِيَةِ الكمياوِيّة، وهِيَ عَودَةٌ سَيَحتلُّ فِيها «داوُدُ بنُ عُمَرَ الأنطاكي» وكتابُه «التَّذْكرة» مركزَ الصَّدارة، التِي كانَتْ لَهُما، فِي القُرونِ الخالِيَة.

المطبعة الجديدة للفنون المطبعية IMAG Imprimerie Moderne des Arts Graphiques

الأنطاكى

آخر الصيادلة العرب العظام، المعالجين بالأدوية الطبية الطبيعية. عاش فى القرن السادس عشر الميلادى، وولد كفيف البصر على ضفاف نهر العاصى، وأجاد عدة لغات وجاب أنحاء تركيا والشام و مصر طلبًا للمعرفة. واستقر فى مصر وعمل بها رئيسًا للصيادلة و البيمارستان وترك وراءه كتبًا فى الطب والدواء أشهرها كتابه (تذكرة داود) فى ثلاثة أجزاء، جمع فيه أكثر من ثلاثة آلاف نبات. إنها قصة تثير الفخار. يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة:

1- ابن النفيس	13- ابن ماجد	25- ابن الرزاز
2- ابن الهيثم	14- القزويني	26- تقي الدين
3- البيروني	15- ابن يونس	27- الرازي
4- جابر بن حيان	16- الخازن	28- الكندي
5- ابن البيطار	17- الجاحظ	29- الخليل
6- ابن بطوطة	18- ابن خلدون	30- ابن حمزة
7- ابن سينا	19- الزهراوى	31- الزرنوجي
8- الفارابي	20- الأنطاكي	32- يوحنا بن ماسوية
9- الخوارزمي	21- ابن العوام	33- ياقوت الحموي
10- الإدريسي	22- الطوسي	34- ثابت بن قرة
11- الدميري	23- الكاشي	35- ابن ملكا
12- ابن رشد	24- الوزان	36- ابن الشاطر

© Editions Anep
ISBN: 9947-21-282-3
Dépôt légal: 1702-2006

440